

من معارك الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧ معركة الكفسر

د. لؤقاز فرحوط

تشكل « الثورة » السورية الكبرى ، التي انفجرت عام ١٩٢٥ ، « فجأة » (١) في جبل الدروز بقيادة سلطان الاطرش ، اعنف واطول فاصل زمني (١٩٢٥ - ١٩٢٧) . في الكفاح من أجل الاستقلال قام به الشعب العربي السوري ، في وجه الانتداب الفرنسي . في أعقاب معركة ميسلون التي جرت غدرا ، مبتسرة ، بلا تكافؤ ، على أبواب دمشق ، في الرابع والعشرين من تموز / يوليو ١٩٢٠ ، والتي قادها البطل بحق يوسف العظمة وهو يعلم نتيجهتها (٢) ، حتى لا يقال ، ان فرنسا ، دخلت سوريا ، قلب العروبة آنذاك ، دون قتال . لتنفيذ سايكس - بيكو .

وبشن محن وتضحيات لا حصر لها ، انتهى الامر بسوريا الى الحصول عام ١٩٤٣ على الاستقلال ومن ثم بعد ثلاث سنوات ، الى تحرير كافة اراضيها من الاحتلال الاجنبي . من هنا اعتبار تلك « الثورة » خاتمة للمحن والتضحيات وان كل ما جاء بعدها وما تلاها حتى توقيع المعاهدة مع الفرنسيين بالحروف الاولى ، انما كان يجري في ظل سيوف « المجاهدين » الذين نزحوا من سوريا الى الاردن وتجمع بعضهم في « النبك » بانتظار ما يتوصل اليه رجال السياسة . ولادراك أهمية الثورة كعدوة على طريق تقدم سوريا الى أهدافها الوطنية لا بد من استعراض قوى مراحلها .

في السنوات التي سبقت الثورة عمل الفرنسيون على توطيد « الانتداب » بالوصول الى سن الدستور ، او النظام الاساسي ، كما قضت بذلك عصبة الامم ، ان يوضع في مدة سنتين ، وعمل الشعب من جهته ، تلقائيا ، على ان لا يمكنهم من ذلك . فانقضت سنوات ما قبل الثورة في تخطيط ، وعدم استقرار دل على خطأ عصبة الامم وخلل في اهلية الدولة المنتدبة وصوابية الانتداب ، تطورت في أثنائها الحياة السياسية وشكل الحكم الذي فرضته فرنسا : من تقسيم سوريا الى دويلات متعددة ، املا بتسهيل حكمها ، مستقل بعضها عن بعض ، مرتبطة مباشرة بمندوبي المفوضية الفرنسية العليا في بيروت ، الى اتحاد ذي مجالس استشارية ، ثم الى اتحاد يتمتع بمجالس تمثيلية منتخبة ، ذات اختصاصات محدودة ، وبعد ذلك الى وحدة بين حلب ودمشق مع الاحتفاظ بعلاقات شبه اتحادية مع سنجق الاسكندرون و « بلاد

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤

الطوين» (٣) .. ظل وضع « دولة جبل الدروز المستقلة » ، كما انتهى اليه منذ قدوم الفرنسيين واتفق عليه روبر دي كيه وشيخ « العقل » محمود أبو فخر ... وبدأت تكتنفه حفلات « عيد الاستقلال » سنويا ، بمظاهرها المصطنعة ، كأنما لا علاقة تربط اهالي هذا الجبل بسوريا ولا شأن لهم بما يجري ويختر فيها ، المحسوس ببصرة بنيتها .

وهكذا ، من حيث لم تتوقع سلطات الانتداب ، وهي سادرة في غيها وفي رعوتها ، وفي وقت تراخت فيه قبضتها وانخفض عدد قواتها ، انطلقت الثورة ، فكانت مفاجأة لها وللجنة الانتداب على السواء (٤) . وذلك لانها اقامت حكمها على أساس طائفي ، بل على أن « طوائف » سورية تشكل شعوبا منفصلة بعضها عن بعض ، حتى بلغ الامر أن حسبت تعدد الطوائف هذه هي نتيجة فوارق عرقية ، ولم تفتن ، أو تعمدت ان لا تفتن ، الى ما بينها من ثوابت : هي روابطها القومية الاعمق من خلافاتها الدينية والاكثر أصالة ، والى أن مصالحها المتشابكة أقوى وأغلب من تلك الاحقاد والضغائن والعداوات التي ورثها الحكم العثماني وعصور الانحطاط . ومن ذرى « جبل الدروز » التي اقام الفرنسيون دولته « لتكون حصنا لهم » يفصل دمشق عن عمان وبغداد ، استجمعت البلاد كلها تقريبا ، أمانها الوطنية والقومية ، هذه المرة ، بمنطق الثورة ، تطرحها وتطالب بتحقيقها .

تصور صحافة تلك الايام ومصادر الانباء والتقارير الى وزارة الخارجية الفرنسية، انقسام أهل الجبل - على اثر وفاة حاكمه الامير سليم الاطرش الى فئتين او حزبين : أحدهما يطالب بحاكم وطني ويرى شغور المنصب فرصة له ، وآخر يؤيد وكيله ، الفرنسي ليسد الفراغ ، وأن المطالبين بحاكم وطني ، استغلوا فرصة قيام الحاكم الفرنسي بالوكالة في اجازته فتعالت شكواهم منه فذهبوا لمقابلة المندوب السامي في بيروت الجنرال ساراي . فرفض « مقابلتهم » ، وقيل انه أساء استقبالهم ولم يقبل شكواهم على موظف فرنسي ، في اجازة ، لانه عضو في حزبه (في فرنسا) ومن محفله الماسوني .. وان السلطات الفرنسية في دمشق اعتقلت بعضهم وهم في طريق العودة الى الجبل ونفقتهم ... فكان هذا سببا في قيام « سلطان الاطرش زعيم هذا الحزب » ، الذي تخلف عن الاشتراك ب « وفد الاحتجاج » ، بثورته على الفرنسيين ... الخ (٥) كما صور بعضها المسألة انتصارا لنفوذ « عائلة » - عائلة الاطرش - كاد يعصف به وجود كارييه Carbillet في الحكم ، الذي كانت سياسته تقوم على تقوية التيار الشعبي ضد الاقطاع .

والحقيقة مختلفة تماما . فحركة « الاحتجاجات » على تصرفات الحاكمين

الفرنسيين في السويداء وعلى هذا الحاكم الفرنسي بالذات وبعض معاونيه و«المراض» التي رفعت للمسؤولين بمناسبة أزمة الحاكمية ، لم تكن بنت ساعتها ، وإنما كانت وسيلة القوى الوطنية الى اهدافها في مكافحة الانتداب الفرنسي ولم تكن هدفاً (٦) فالحزبان المعنيان هما اصلاً من مؤيدي الانتداب ومن قبل كانا من مؤيدي الحكم العثماني واقتطباهما هم من المنتفعين بالسلطة في كل عهد . ومن قرأ « حوران الدامية » لحنا أبي راشد الدقيق في التأريخ لتلك الفترة لا يحتاج الى مزيد . . في حين أن الجانب الاقوى والاكثر عدداً وتعبراً عن مكنون « الجماهير » ، كان يتمثل في تلك الجماعات ، وعلى رأسها سلطان الاطرش ، التي سبق لها أن لعبت دوراً كبيراً في « الثورة العربية الكبرى » ضد الاتراك العثمانيين ، الى جانب الحلفاء ورفضت الانتداب الفرنسي في استثناء لجنة كينغ - كراين ، مطالبة بالوحدة . ثم قاطعت « مهزلة دولة جبل الدروز المستقل » ، ولم تكن تشترك في « اعياد الاستقلال » وإذا اشتركت فبالرغم عنها ، تمويها . ولم يكن من شأن وجود هذا الحاكم الفرنسي الظالم الارعن ، الشاذ في اخلاقه ، الذي عم اذاه ، الا أنه فاقم الاستياء الشعبي . وقبلما انقضى عام واحد دون ان نجد من يشارك منها - من تلك الجماعات - في اثاره الاضطراب في وجه الحكم الفرنسي أو يخرج عليه (٧) . اذ لم يكن أهالي الجبل قد نسوا بعد ذلك « العز » الذي انتشوا به جراء دورهم في الثورة العربية مع فيصل .

ذلك أن جبل حوران ، الذي أصر الفرنسيون على تسميته بـ « جبل الدروز » لتعزيز الصفة الطائفية - وجاء الحكم الوطني فسماه « جبل العرب » - كان من اشد مناطق سوريا ارتباطاً بفكرة الثورة العربية على العثمانيين التي ركب تيارها الهاشميون وحنينا الى أيامها .

اذ ، على الرغم من توالي تجريدات الدولة « العلية » عليه ، لاختصاصه ، فان اخبار ثوراتهم طغت على تاريخ المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وظل الجبل من بين المناطق العربية القليلة ، المنطقة التي لم يستطع العلم العثماني ، رغم جميع مآسيه ، ان يستقر فيه (٨) ومن هنا كان أهاليه من أوائل المبادرين لتلبية نداء الشريف حسين بالثورة والالتحاق بفصيل وهو ما يزال في العقبة خاصة منهم أهالي القضاء الجنوبي ، كما كان الجبل هو المصبر المأمون اليها . يذكر الدكتور أحمد قدرى ، في مذكراته عن الثورة العربية ، كيف كان بواسطة الدكتور عبد العزيز الكنعاني واقاربه في جرمانا يخفي اعضاء جمعية الفتاة ثم ينقلهم الى قرية « خلخلة » ، احدى القرى الامامية في الجبل ومنها الى القرية ، بلد سلطان الاطرش قاصدين بعدها الى العقبة . ويستدل مما كتبه ان المرء منهم ، ما أن تطأ قدماه أرض الجبل ، حتى كان يشعر بالامان والاطمئنان ، يمر بـ « المخفر » ، بغير اكتراث ، وتولم له الولائم ، ويلتف حوله

السامرون ينشددهم شاعر القرية على الرابة حتى الفجر(٩) . ويمكث اياما فيه ويتنقل بلا وجل . وكانت القرية مقرا يأوى اليه الملاحقون والمتوارون عن عيون الاتراك أو محطة على طريق الحجاز ، وقد أفرد لهم مكان ينزلون فيه بدار محمد شلهوب : كل منهم جورج صيدح و خليل سكاكيني . ولا يزال سكان القرية المعمرون يذكرون بعضا من نوادرهما وطرائفهما(١٠) . وقد أنشدا في جمع من الاهالي نشيد الوطن العربي ورفع سلطان الاطرش بحضور تحسين قدري ونزيه المؤيد العلم العربي قبل دخول الحلفاء وفيصل الى سوريا ، وقبل رفعه في اي مكان آخر من سوريا .

ومنذ بداية الحرب ، قبل الاتصال الرسمي بالشريف حسين ، أبدى سلطان الاطرش استعدادة للثورة والانتفاض على العثمانيين ، فأرسل كتابا الى المعتمد الانكليزي في القدس الا أن الجواب جاءه من المعتمد الفرنسي حداد باشا (١١) وكرر الكتابة الى المعتمد البريطاني فاجابة حداد باشا مرة أخرى(١٢) كما أوفد حسين الاطرش ، شيخ قرية عنز ، للالتقاء برسول الامير فيصل في « كاف » لطلب مدد من الاسلحة للقيام بثورة ضد الاتراك ، وحضر اللقاء : نسيب البكري ، وزكي الدروبي .

والى هذا الاجتماع تعزى ، افتراء ، فكرة ، اعطاء الجبل كيانا خاصا ، داخل كيان الحكومة السورية(١٣) ، وراحت قيادة الثورة توالي موافاته الانباء الهامة وهو بدوره يرسل بها عيون القرى والمتنفذين فيها عاملا بذلك على بثها بين الناس(١٤) . وقد اشار الى ذلك خصمه ، زعيم الاتجاه الاخر الموالي للعثمانيين ، بل والحكم القائم في كل عهد . وفي صيف ١٩١٨ عاد نسيب البكري الى الجبل يحمل منشور فيصل الى اهاليه ، على ما يذكر حنا أبو راشد ، فاذاذ سلطان الاطرش على أثره منشورا على الجبل يدعو الى الثورة ، ضاربا موعدا للحاق به في بصرى الشام للقاءة الشريف في درعا .

بعد أن تحرير دمشق انسحب سلطان باشا ومن معه من الدروز الى الجبل وظلوا محافظين على عهدهم للحكم الجديد وعلى احترامهم لفصيل واملمهم فيه . وداوم من جهته ، على الاتصال بهم كعادته كلما كانت تتأزم الامور في استطلاع آراء مؤيديه فكان يجدهم دائما على عهده بهم مخلصين ثابتين على المبدأ . وبعد ميسلون وانسحاب فيصل الى الكسوة هب الدروز لنجدة الجيش العربي فتقدمت بيارقهم (اعلام القرى) حتى وصلت بصر الحرير في سهل حوران ، الا أن فيصلا كان قد مر بدرعا ، مغادرا الى فلسطين ثم الى أوروبا باحثا عن عرش ، ولم يأخذ بنصيحة حمد البربور ، من « أم الرمان » ، بنقل الحكومة الى السويداء ، عاصمة الجبل ، والاستمرار في محاربة الافرنسيين ، كما أشار عليه كثيرون من وطني البلاد(١٥) .

وبقيت ذكريات هذا العهد ، مشرقة في ذهن أهالي الجبل وخاصة في قضاء صلخد ، فلم يكن من السهل نسيان « أيام الشريف » الحلوة و « عزها » . لا سيما لما رافقها ، لمدة سنتين ، من فيض في المحصول وارتفاع أسعار الغلال . فكان ذلك باعثا على صمود أكثرهم في وجه الاغراءات الفرنسية : كانوا يقولون ان فلاحه الارض ادر مالا من عطايا غورو Gouraud وذهب الاحمر الرنان ، حتى ان احدهم استصلح قطعة من الارض البور على اطراف المعمور بين الجبل والاردن واطلق عليها اسم غورو وصارت مضربا للتندر على المتعاونين مع الفرنسيين ، وما زالت بهذا الاسم حتى الان .

بداية سعى الفرنسيون الى اعطاء الجبل كيانا مستقلا واقاموا انشاءات الحدود بينه وبين حوران ، حتى انهم اثاروا الاحسن القديمة ، المنسية ، وجعلوا له عيد استقلال ، تقيم القرى ، كل القرى ، بيتا من الشعر او أكثر يضم فئة من شبابه وبناتها ، يولون ويتنافسون في الولائم والالعاب الفروسية والاهازيع وسهرات الربابة . لا تتخلف عن الاشتراك ، « عائلة » خشية عيون الحكم والوشاة .

وبدا كان الدولة المنتدبة تطبق اتفاقية « روبردى كيه - أبو فخر » التي اكتسبت رضى « عائلات » الجبل في اجتماعات عامة دعيت اليها - وان كانت اثناء ازمة « حاكمية كاربييه » والمطالبة باستبداله او بعزله وتنصيب حاكم درزي مكانه بموجب هذه الاتفاقية قد اثرت - ورفض الجنرال سراي الاعتراف بها (١٦) . كانت حكومة الانتداب تدبر حكمها بتقسيم الجبل الى اقسية ثلاثة : السويداء ، صلخد ، شهباء ، وعلى رأسها حاكم اختارته في البداية ، من آل الاطرش ، كبرى عائلات الجبل ، هو الامير سليم ، خليفة يحيى بك الاطرش ، زعيم « عرى » ، المعترف لها ، بين أهالي الجبل بال « زعامة » ، والذي اختصم مع سلطان باشا الاطرش ، في أواخر الحكم العثماني على الموقف (١٧) في رسائل متبادلة بينهما نشرها حنا أبو راشد ، واقامت ، من أعوانها ، مجلسا استشاريا يجري انتخابه على درجتين ، راعت فيه التمثيل العائلي . ونصبت في كل قضاء مستشارا . فلما توفي الحاكم الاهلي الامير سليم ، سولت لنائبه الكاتب كاربييه نفسه ، او ان حكومة الانتداب أوعزت له أن يطرح نفسه على المجلس الاستشاري لانتخابه حاكما أصيلا . ففعل بأن جمع أعضاء المجلس الاستشاري وطاف بينهم ماذا برنيطته ليضعوا أصواتهم فيها على ورقة أمام عينيه فلم يجرؤ أحد على المخالفة . وشفع هذا الانتخاب بحركة تأييد عامة من الاهالي . فطاف قرى الجبل وكان على أهالي كل قرية أن يهرع أهاليها لاستقباله الى حدود القرية القادم منها حيث يخرج لوداعه أهالي القرية القادم منها . وويل للوجيه او الشخص البسارز في القرية الذي لم يخرج لاستقباله او لوداعه . فاقل ما كان ينتظره ان يسجن في « الباكية » بين البقر والحمير ليلا ، ويمضي نهاره في رصف الطرق . لا فرق في ذلك بين عائلة واخرى . ظاهرا

كان يزف من قرية الى قرية بين الاهازيج والدبكة والدفوف . ولكنها زفة تبعث المرارة والشعور بالاكره والظلم . لم يشعر الاهالي بمثله من قبل ولا في كنف الدولة العثمانية . لان « الدنيا » حينذاك لم تكن تضيق بهم فأرض الله واسعة ، وما كان على المرء فيها الا أن ينتقل من ضيعة الى ضيعة يتوارى فيها او عشيرة بدوية رحالة .

وقد عزا الحكم الفرنسي ذلك وما كان الاهالي يحسونه من دكتاتورية حاكم الجبل الكابتن كاريبيه الى اضطرابه اليه لفرض « السخرة » لتعبيد الطرق وشق الاقنية وبناء المدارس ... اذ كيف بدونه وبدون فرض ضرائب يستطيع القيام بما قام به لان ميزانية « جبل الدروز » لم تكن تتعدى (٨) ملايين فرنك ، على حد قولها في تقريرها الى عصبة الامم لعام ١٩٢٥ ، ولم يكن الوفد السوري الفلسطيني بجانب عصبة الامم في جنيف قصير اللسان للرد ، وان بدا ان التقصيات التي كانت ترد اليه من سورية ضعيفة لا تفي بالفرض ... ولكن متى كان ثمن « القطة الفرنسية » يساوي عشرين ليرة ذهبية تفرض غرامة على اهالي السويداء ، (ربما كان احدهم سرقها او رماها في الحرش طعاما للوحوش ...) . ولعل الشعور بالظلم والاهانة هو الذي دفع بطلا من الشعب هو حسين مرشد من السويداء للتصدي للملازم موريل احد اعوان الحاكم المباشرين فيطلق عليه النار من مسدسه في وضح النهار في ٣ تموز / يوليو ١٩٢٥ فكان ذلك انذارا لسلطات الانتداب بقرب الانفجار .

ولم تخف سلطات الانتداب بل لم تستطع اخفاء ما كان يثير استياء الناس من الحكم وتصرفات الفرنسيين المباشرة واعوانهم ورجال الشرطة في كثير من الاحوال التي يصعب سردها وتفصيلها ، حتى تقاريرها التبريرية التي تأخذ صفة الدفاع امام المركز او تقارير المفوض السامي الى وزارة الخارجية فانها كانت تنم عن الاخطاء وسوء الاستعمال ، مما يؤكد ، كما يقول الدكتور ادمون رباط أن الكابتن كاريبيه مارس دكتاتورية فعلية سمحت بها وساندتها السلطات الفرنسية . وما ان وسع صدر تومي مارتن الذي ارسل ليحل محل الكابتن رينو ، الحاكم بالوكالة مكان الكابتن كاريبيه الذي أعطي اجازة اضطرابية ، وفتح الباب للشكاوى حتى انهالت عليه « العرائض » من كل جانب تكشف الارتكابات وتحددها ، نوه بعضها انها تقدم للمرة الثانية ، الاولى قدمت للكابتن رينو الذي خلف الكابتن كاريبيه . وقيل انها وراء تقرير الكابتن رينو الذي رواه مسيو فيري Ferry في مجلس النواب الفرنسي وقال فيه : « ان المقصود بذلك شن حملة ضد الكابتن كاريبيه انجرت عليها عائلة الاطرش التي اقتضتها الظروف الى صفوف المعارضة مع معظم العائلات الدرزية ... الا أن أفراد هذه العائلة الذين جاؤوا اليّ يؤكدون شخصيا اخلاصهم للسلطة المنتدبة ، طلبوا مني أن أستمع اليهم مندوب المفوض السامي في دمشق لتبديد سوء التفاهم » (١٨) . ثم أردف قائلا : وأعطوا

« ... انهم اظهاروا لاخلاصنا وولائنا نصرح اننا لم نعد نطالب بحاكم وطني ... وانما نريد حاكما فرنسيا شرط الا يكون هو الكابتن كاربييه » .

ويستشف من مداخلة النائب فيري ، في البرلمان الفرنسي ، ان السلطات الفرنسية في الجبل كشفت عن تناقض في صفوفها وتنافس (لم يكن ليخفى على بصيرة الاهالي ...) . فقد تلقى المفوض السامي في ٢ مايو / ايار برقية موقعة من اربعة وعشرين من اعيان الجبل يدعمون الكابتن رينو قائلين « ... انه احيا فيهم تعلقهم بفرنسا وبدد سوء التفاهم » . ويمضي النائب في مداخلته ، فيقول ان اوغست برونيت النائب الفرنسي الذي يمر بدمشق استقبل في اليوم الثاني وفدا درزيا يضم ثمانية وثلاثين شخصية يمثلون كبريات عائلات الجبل ، منهم سبعة اعضاء في المجلس الاستشاري ، وواحد من شيوخ « العقل » الاربعة ، فاستمع لشكاويهم ووعد ان ينقلها الى المفوض السامي . وفي ١٥ من الشهر نفسه توجه هذا الجمع المهيب الى بيروت لتقديم شكاويه بنفسه ولكن المفوض السامي الجنرال سراي رفض استقباله . وبعد ثلاثة ايام وجه الكابتن رينو تقريرا اخر الى رؤسائه في دمشق يدعم مطالب الوفد يذكر فيه: ان هناك حركة عامة تدعونا ان نعير حوادثها اعظم الانتباه . واخيرا قدمت رسالة جماعية ، شارك فيها من كان لا يزال متفرجا بعد من اعيان الجبل في المطالبة بتنحية الكابتن كاربييه ، وبعض اعيان دروز لبنان وعلى رأسهم الامير فؤاد ارسلان . ولكن ذلك لم يزعزع صمت الجنرال سراي .

وكانت الجهود جميعها حتى ذلك الحين متجهة الى استبدال الكابتن كاربييه وعدم عودته الى الجبل . ولكن تيارا جديدا ، اكثر عمقا راح يأخذ مجراه في الصفوف هو تيار المطالبة باتفاق ١٩٢١ الذي يشرط وجوب تسمية حاكم درزي في حكم الجبل . الا ان الجنرال سراي ، المفوض السامي ، أعلن انه لا يعترف بصلاحيات الاتفاق في حين كان الدروز « يطالبون بالحقوق التي تمنحنا المعاهدة وتفرضها الظروف الان » وكانت حجة الجنرال ان هذه المعاهدة لم يوقعها من اهالي الجبل الا شخص واحد فيجب الموفدون الدروز بقولهم : « بالطبع كان هذا الزعيم الواحد منتدبا من الاخرين ، كما كان روبر دي كيه مفوضا منتدبا من الزعماء الفرنسيين الاخرين . ومع ذلك ما كان لهذا المندوب الفرنسي أن يضع توقيعه عليها لولا انه محص السلطات التي تخول مندوبنا ذلك » .

صحيح ان هذا التيار لم يكن بقوة تيار المطالبة بعزل واستبدال الكابتن كاربييه من الحاكمية ، وربما كان الجنرال سراي يستطيع تهدئة الحركة مؤقتا التي تنبىء بالانفجار لو أنه أعلن موافقته على تغيير كاربييه على الأقل . ولكنه لم ينش وظل سادرا

في عناده بدفع التيارين معا ، فقد أعقب الوفد الذي أثار اتفاقية أبو فخر - روبري دى كيه الواقعة في الرابع من اذار/مارس ١٩٢١ برسالة الى مندوبه في دمشق قائلا: « ختمت قلبي بان هذا الامر لم يبق له الا قيمة تاريخية واضفت الى ذلك أنهم اذا لم يعتبروه كأنه لم يكن فسوف يخلقون منه مدعاة للفتنة ويعرضون انفسهم لاعتبارهم مشيرين للشغب » .

وفي هذه الاثناء استبدل بالكابتن رينو الذي تعرض لاطلاق النار ، الكومندان تومي - مارتن رئيس استخبارات الدولة السورية . فوصل السويداء في ٦ اتموز/يوليو ١٩٢٥ واستقبله الناس بالترحاب ظنا منهم بان مجيئه علامة على تبدل موقف الحكومة المنتدبة . وكانت مهمته في حقيقة الامر قمع حركة الاحتجاجات وتوقيع العرائض ، والتهيئة لعودة كاربييه بدون اي تحر للوقائع ، في حين ان الناس حسبوه من طينة اخرى فانهاؤا عليه بالعرائض التي تحمل مئات التوقيعات . مما دعاه الى القول في تقريره للمفوض السامي الى القول انه : « لا شك في أن عودة الكابتن كاربييه الى السويداء ستعرضنا :

١ - الى مهاجمة سيارته على طريق السويداء - درعا .

٢ - عصيان في مدينة السويداء نفسها .

٣ - انتفاضة في جبل الدروز .. » (١٩) .

وفي كل ذلك لم يكن المسؤولون الفرنسيون يلتزمون عذرا لعناد الجنرال سراي الا في اتباعه لاثر من سبقوه في تطبيق الانتداب باتوقراطية صارمة . فقد صرح النائب دوريو Doriot في مداخلته بجلسة ٢٠ كانون أول/ديسمبر ١٩٢٥ بقوله : « فوجئت برغبته التي اظهرها باتباع ما أسسه سابقوه . كان يردد دائما هذا ما فعله من سبقني .. ماذا افعل لم اشأ تغيير ما وضعوه ، نعم لم استقبل اعيان الدروز .. ولكن هذا ما فعله غيري .. » . ولم يستبدل بكاربييه لان الجنرال ويفاند المفوض السامي هو الذي عينه حاكما .

وخطا الجنرال سراي خطوة الى الامام متوهما ان الازمة ازمة « عائلة » . فبحجة ان يتيح لها تحديد مطالبها بدقة أرسل يستدعي خمسة من زعمائها الى دمشق ، حضر منهم ثلاثة هم : نسيب ، شيخ صلخد ، وحيد ، عري ، وعبد الغفار ، السويداء ، فارسلوا معتقلين الى تدمر ، حيث كان قد سبقهم اليها عقله القطامي ، وزعيم خربنا .

في اليوم التالي ، التقى أحد الاهالي بالكابتن نورمان ، في أحد شوارع السويداء ، فقال له الاهالي : « الا تعلم ماذا جرى بالامس ، لقد اعتقل شيوخوا . فاجابه الكابتن نورمان : هذا غير معقول . المفوض السامي جنرال في الجيش الفرنسي . انه غير قادر على الاقدام على امر كهذا » (٢٠) . وادانت لجنة الانتدابات في عصبة الامم في أعقاب جلسة روما (شباط / فبراير ١٩٢٦) المسؤولين الفرنسيين ولم تجد في جميع مبرراتهم ما يمنهم من استقبال وفود اهالي الجبل والاستماع الى شكاويهم .

حتى هذا الحين لم يعد ما يجري المطالبة باستبدال حاكم فرنسي بحاكم فرنسي آخر كثرت أخطاؤه وسوء تصرفه ، وانصرف النظر عن المطالبة بأن يكون هذا الحاكم من الاهالي ربما لان الخلاف يحسم ، بين ان يكون هذا الحاكم من « اطرشة » عرى أصحاب الزعامة العشائرية المتعارف عليها أم من « اطرشة » السويداء عاصمة الجبل ، التي منحها الواقع أهميتها . والى جانب هذا أو منفصلا عنه الى حد ما فطن المعارضون وتجراوا على المطالبة بتطبيق او مراعاة اتفاقية « أبو فخر - روبرديكيه » الموقعة في بيروت سنة ١٩٢١ التي تمنع الجبل حكما ذاتيا . ولم يدر في خلد هؤلاء وأولئك ولم يصرحوا برفض الانتداب الفرنسي ، ومعظمهم كان على صلة بالفرنسيين من وراء فيصل ، لم يقطع الصلة في عهده وظل محافظا عليها ، وساهم في تأليف « الخيالة » المرافقين لغورو وقتل أحدهم وهو يتسلل من وراء حكم فيصل لمقابلة الفرنسيين في بيروت .

عندما اجتمع اعيان آل الاطرش في صلخد لتلبية طلب مندوب المفوض السامي بدمشق بنزول خمسة منهم الى دمشق بحجة تقديم شكاويهم كان رأي سلطان الاطرش صراحة الى جانب عدم الذهاب واعتبر المسألة فخا . لذلك لم يغادر « القرية » بلده ، واعتذر متعب شيخ رساس بمرضه ، وامثل الثلاثة الآخرون . ومن الواضح ان ورود اسم سلطان في عداد الخمسة المطلوبين هو من قبيل « خلط الحابل بالنابل » ومن هنا كانت زيارة تومي مارتان لسلطان في بيته في القرية لاقتناعه بالذهاب الى دمشق مع الذين ذهبوا . فلما واجهه سلطان برأيه في الحكم وغيه ، وصل الامر في نقاشهما الى ان قال له سلطان قولته المشهورة التي انتشرت كالنار في الهشيم « لولا أنك ضيفي لأمرت بزرك في الباكية » مدير استعلامات حكومة سوريا ، المنتدب الى السويداء يزرع بين الطرش !! عندئذ غادر متوعدا . ومن هنا بدأت الثورة . عاد تومي مارتان الى السويداء ، ولم أعثر في الوثائق الفرنسية على رد فعله ، وركب سلطان بصحبه اخيه زيد للقيام بجولة في الجنوب . فخرج من بكا ، خيال واحد فقط هو شيخها صياح حمود الاطرش ولم يمروا بالقرية التي تليها جنوبا ، ذيبين ، لان شيخها هو رئيس المجلس الاستشاري ، وخرج اليهم لمراقبتهم حمد البربور من أم الرمان .

وعندما اقبلوا على قرية عنز طالهم بعض من كان في مضافة حسين الاطرش فأوفدوا من يلقاتهم بالرجاء أن لا يدخلوا قريتهم فاستمروا في طريقهم متجنبين قريتي شنية والمشقوق ثم صما البردان ، الى امتان . وفي امتان تعلق الشاب علي مصطفى الاطرش بركاب سلطان الاطرش يرجوه أن لا ينزل في القرية . فأكمل طريقه الى قرية ملح وهي مقر ناحية تابعة لصلخد ولم يخرج من امتان في صحبته الا خيال واحد هو يوسف العيسى .

وهكذا اقبل ستة خيالة الى ملح ياملون أن يلقوا فيها العون . كانت قرية ملح « ناحية » من نواحي قضاء صلخد ، واقعة على حدود البادية المتصلة من جهة بالعراق ومن جهة بالاردن في منتصف المسافة تقريبا بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال من حدود جبل الدروز الشرقية . وكونها مركز الناحية يعني أن بها مخفرا للدرك وموظفي حكومة . وفي هذه المسافة الواقعة في نصف دائرة تقريبا من القرية بلد سلطان الى ملح يكون قد مر باثنتي عشرة قرية منها . ولم يجتمع حوله أكثر من ستة خيالة . لحق بهم على ما يقال ستة أو سبعة اخرون . مما يقطع بأن الخوف من السلطة ما يزال يملك النفوس . وما أن أقبل جمعهم وطالهم الناس بالمناظر حتى بادروا بايفاد من يلاقيهم لانذارهم بوجود « المخفر » بكامل هيئته وعدته ، وينصحهم بالنكوص اذ ليس في القرية والحالة هذه من يجرؤ على استضافتهم أو الاستجابة للعمل معهم . فاداروا رؤوس خيولهم وقفلوا راجعين . وعلى بعد كيلو متر واحد أو اثنين مروا بفسحة شاسعة ، هي أرض لعائلة الباسط ، تصلح ميدانا للطراد فنصب أحدهم « الميدان » ، رفعا للمعنويات المنكسرة واثارة للنخوة في رؤوس الرجال وراح يتحدى للنزال* . فانقسم الجمع فريقين وبدأ الطراد . ولم يلبث خيالة القرية أن شاهدوهم فانطلقوا كل من جهة ينهالون للمشاركة وانصرف أفراد المخفر ومن يمت للحكومة فغادروا القرية بهدوء من تلقاء أنفسهم . وقبل غروب الشمس توقف النزال في الميدان فأخذ خيالة القرية والذين احتشدوا للمشاهدة يتنازعون على استضافة سلطان وربعه . فاذا بالقرية وضيوفا يبيتون ليلتهم في « عز أيام زمان » بين الاهازيج . وانتشرت الاخبار وانحلت عقدة الخوف في البلاد . ولم يعد يخشى من دفن بندقيته أن يخرجها ويجلوها . في اليوم التالي ١٦ أو في ١٧ تموز/يوليو، انطلق من قرية عرمان ثلاثمائة خيال – ربما كان بينهم بعض أهالي القرى المجاورة : قيصما و الهويا والحريسة – الى لقاء سلطان في ملح، وبدلا من أن يستمر هذا الجمع الغفير في سيره الى الامام ، ملتفا

* سميت الى تقصي اسم هذا الشخص دون جدوى . واستنبتقت سلطان باشا مرارا فلم يذكره ...

والغلب الظن أنه كان هو البادئ الا أنه لم يشأ أن يتحدث عن نفسه كعادته ...

حول الجبل عاد منحرفا الى عرمان المواجهة لصلخد ، مركز القضاء ومقر المستشار الفرنسي . ودفعت هذه التجمعات المقلقة ، المثيرة ، الفرنسيين الى ارسال طائرات استكشاف (١٧ تموز) فاجبرت نيران البنادق احداها على الهبوط في قرية امثان . فبسط الشاب علي مصطفى الاطرش زعيم القرية حمايته على الطيارين وانقذهم من فلك الاهالي بهم . فكان ذلك بداية شهرة سياسية . وبعد يومين اثنين ، لم يبق هناك من يستطع كبح جماح هذا الجمع الهائج عن الزحف الى صلخد ، ثانياً مدن الجبل الكبرى ، فاندفعوا يحرقون سراي الحكومة فيها وبيت المستشار يشاركهم اهايلها ومن صلخد انطلق هذا الجمع ومن خرج معه من اهالي صلخد ، الى سهل اسمه العين ، الى الغرب - الجنوبي . وهو مرج صالح للمرعى ، حيث اقترح سلطان الكوث قليلا والتقاط الانفاس . فنصبت بيوت « الشعر » وصنعت القهوة « المرة » وتحلق الجمع حول شاعر الربابة كأنهم قبيلة جمعها « مرباع خيولها » .

ورأى المسؤولون الفرنسيون في السويداء ورؤساؤهم في دمشق ، عندما لم يستجب سلطان لطلبهم باللاحاق بالثلاثة من آل الاطرش الى دمشق ، وبعدما وصلتهم اخبار التجمعات في القضاء الجنوبي ان يقطعوا عليها الطريق ، بملاقاتها في قرية الكفر شرق جنوب السويداء ، بكتيبة يقودها الكابتن نورمان .

كان قصد سلطان من مقامه في مرج العين وتريثه اتاحة الفرصة لمخابرة قرى الجبل بالحال وضرب موعد للقاء في قرية قنوات ، مقر المشيخة الروحية ، للتداول فيما يجب اتخاذه . وعندما علم بقوة الفرنسيين التي تترصده وتقطع عليه الطريق في الكفر ، ندب خياليين من المقربين للانتقال الى الكفر والسعي لمقابلة نورمان ، بصحبة شيخ الكفر اسعد مرشد ، والطلب من قائد السرية الابتعاد عن الطريق وعدم التعرض للجمع القادم مع سلطان لان بغيته المرور الى قنوات فقط ، وهو لا يبتغي القتال ومراده السلم والتفاهم . ولكن رعونة رجال الانتداب ابت الا ان تظهر صلفها . ففي اثناء محادثة الشيخ اسعد مرشد لنورمان امام موفدي سلطان ، قال نورمان وهو مستلق على سريره في خيمته بلباس الميدان وقد ادخل سوطه في جزمته :

— أسعد بك الا تعيرنا انتباهك لحراسة خيامنا ريثما نعود اليها جارين وراؤنا سلطان من شاربيه . ووراءه من ينتصر له ؟

عندئذ هب الحضور وقوفا ، وانتهى الكلام . وعاد الموفدان يخبران سلطان بما جرى فطلب اليهما ان يتكما الخبر ويعتبراه سرا لا يفشى لاحد .

يقول اللواء زيد ، - اخو سلطان الذي كان عندئذ في عداد الجمع - لم تعرف كيف تسرب الخبر وسرى كالبرق . وانطلق الخيالة والمشاة وبينهم اخي مصطفى ، حتى انني ، ولم تكن فرسي مسرجة ، لم اتمكن من اللحاق بهم الا وكانت المعركة قد انتهت وأبيد الفرنسيون وعلى رأسهم نورمان نفسه .

كتب سلامة علي عبيد كتابه الثورة السورية الكبرى على ضوء وثائق لم تنشر عن لسان شهود عيان يصف المعركة :

« ... انطلقوا جميعهم بخيلهم ورجلهم وفي وضع النهار انطلاقا جنوبيا باتجاه موقع الحملة - المخيمة حول نبع الماء شمالي القرية - فسلك الخيالة الطريق الاقل وعورة ، بارشاد بعض اهالي الكفر ، في حين انطلق المشاة بطريق مختصر ولكنه اشد وعورة . وبذلك أصبحوا يشكلون فكي كماشة انقضت في لحظة واحدة ودون أن تتوقف دقيقة واحدة على المحاصرين حتى انها لم تسمح لهم باستعمال اسلحتهم بل اعجلتهم عن ذلك بانقضاض هائل خاطف بالسلاح الابيض . وهكذا فقدت الرشاشات كل ميزة وتحولت البنادق الى عصي خشبية حتى انه لم يتح لآكثر من مثني مجاهد أن يشتركوا في هذه المجزرة الرهيبة التي لم تدم أكثر من أربعين دقيقة ... » .

حتى لقد روي أن أحد الانفجار الناجين من المعركة العائدين الى المقر في قلعة السويداء ، شاهد في طريقه « زواله » ظنها رجلا يتربص به فهرب عنه شاردا ، تاركا بغله وما عليه من مؤونة فاذا بال « زواله » امرأة تتكىء على عصا .

بعد الكفر ، لم تعد فكرة الاجتماع في قنوات واردة في اطار القصد الذي رمى اليه سلطان من قبل . بعدما استجد من معطيات . فالثورة انطلقت . لم يعد في قدرة احد ايقافها . لقد هب الاهالي هبة واحدة . يحدوهم الانعتاق والتحرر من القهر المكبوت منذ أربع سنين ، وكسب البندقية من ايدي الفرنسيين . ففي الدراسة التي اجريت لحصر وتحديد عدد « المجاهدين » الذين يستحقون تخصيص راتب ، كان الشرط الاول أن يكون المجاهد قد بقي في الثورة أكثر من ستة شهور والا لامكن القول بأن جميع القادرين على حمل البندقية من سكان الجبل اشترك في الثورة ، بلا تفريق بين المعارضين والمؤيدين للوجود الفرنسي .

وهكذا امكن لقائد الثورة أن يذيع منشورا يطرح فيه اما ني البلاد : لان الحق يؤخذ ولا يعطى وبالعودة الى السلاح .

الحواشي :

- (١) انظر : ذوقان قرقوط ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ، ط ٢ ، منشورات دار طلاس بدمشق ، فصل الثورة .
- (٢) ساطع الحصري ، يوم ميلون .
- (٣) E. RABBATH : L'Insurrection Syrienne de 1925 - 1927 - Revue Historique, 542 - Avril - Juin 1982 .
- (٤) جاء في تقرير لجنة الانتدابات لعام ١٩٢٦ : « لم يرد في تقرير الدولة المنتدبة الذي فحصته اللجنة خلال اجتماعها الخامس أي باعث على توقع الثورة التي شبت في جبل الدروز .. فاللجنة مضطرة والحالة هذه الى عدّها حادثاً يعود الى أسباب مباشرة ذات اصل حديث ... » كذا .
- (٥) المقطم (القاهرة) ٨ نيسان / ابريل ١٩٣٠ : اسباب الثورة ، في آراء الكتاب الفرنسيين ، وفي ١٢ ، ١٨ ، ٢٥ ، تموز / يوليو ١٩٢٥ ، الاحرار البيروتية ١١ تموز / يوليو ١٩٢٥ .
- (٦) B. N. Paris : L'Illustration, 15 Oût 1925 : (Les èvennements en Syrie) .
- (٧) Porter , J. L. Five years in Damaseus , Vol. I P 135; ميخائيل مشاقة ، مشهد العيان في تاريخ سورية ولبنان ص ١٥٢ ، الامير سعيد الجزائري : جهاد نصف قرن ص ٤٨-٤٩ .
- (٨) الدكتور احمد قدري : مذكرات ص ٤١ ، ٦٤ ، ٦٥ وقد سلك هذا الطريق كل من توفيق البساط وابراهيم هاشم من الضباط الاحتياط في الجيش العثماني ، وعمر حمد عضو الجمعية الا مركزية الشهر وتحسين قدري رئيس الديوان الملكي العراقي فيما
- (٩) بعد : ورفيق التميمي وسليم عبد الرحمن ورستم حيدر والملازم محمود المغربي و خليل السكاكيني وسعيد الباني وعبد اللطيف لطفي وحكمت العملي والدكتور احمد قدري ونسيب البكري وزكي الدروبي ... الخ .
- (١٠) من حديث لسلطان باشا .
- (١١) حنا ابي راشد ، جبل الدروز ، المطبعة التجارية الكبرى ، مصر ، حوران الدامية ، ١٩٢٦ .
- (١٢) أكد سلطان باشا للباحث نتيجة للتداول مع جورج صيدح و خليل سكاكيني وبعض رجالات الجبل أدرك أن الدولتين فرنسا وبريطانيا متفقتان على اقتسام النفوذ في البلاد وأن سورية من نصيب الفرنسيين ولم تكن ساكنس - بيكو قد كشفت بعد .
- (١٣) نفى سلطان باشا ، لي ، التعرض لهذه الفكرة ، نفياً قاطعاً ، في حدود علمه . والارجح ان يكون ذلك مدسوساً من الاتجاه الفرنسي لتأييد خطه فصل الجبل عن سوريا .
- (١٤) مثلاً : بين أوراق نسيب البكري صورة من احدى رسائله اليه يقول فيها : « الجيش الحجازي طهر مكة المكرمة من الانراك وجيش الحلفاء النظم اليه الجيش السوري قد افتتح بشر سبع عن طريق غزوة في ٣١ اكتوبر - تشرين الاول ١٩١٧ ويافا في ١٦ نوفمبر والقدس في ٩ ديسمبر وعليه كن على استعداد مع رجال حزبك وقرباسندخل جبلكم المنيع بواسطتكم . والله ينصر العرب .
- (١٥) حنا خباز ودكتور جورج حداد ، فارس الخوري ، حياته وعصره - مطابع صادر ريحاني بيروت ١٩٥٢ ، ص ٥٢ « واختلف الرأي على اثر انذار غورو . قال فارس الخوري : لا شك في اننا قمنا بما يقتضيه الواجب ومصالحة البلاد . ولكن النعيب لن

أيد الجنرال سراي نفسه هذا الكلام في كتابه الى مندوبه في دمشق ، الذي ذكره الدكتور ادمون رباط في المصنف المذكور سابقا وأيده م. كويلنتر في كتابه « صمت سراي » ص ٢٣٤ .

(١٩) مداخلة النائب Ferry من مجلس النواب الفرنسي المشار اليها سابقا .

(٢٠) L' Echo de Paris , 29 September 1925 .

يقدر ذلك وسيروم بأننا أضعنا عليه فرصة الانتصار وسيكون هناك من يقول دائما ليتهم رفضوا الانذار واختاروا الحرب والنضال ، ساطع الحمري ، يوم ميلون - بيروت ١٩٤٨ ص ١١٢ .

(١٦) المقصود : اتفاقية أبو فخر - دوبرديكيه . وأبو فخر هذا هو شيخ الغفل محمود أبو فخر الذي عزل من المشيخة نتيجة مؤامرة اخلاقية دنيئة . أهلية - فرنسية ، لا شك ان هذه المعاهدة ليست بعيدة عنها .

(١٧) حنا أبو راشد
(١٨) L' Echo de Paris, 29 September 1925

